﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٣٠﴾ [لقمان: 30]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الاستدلالُ بانتظامِ حركةِ الكونِ على أنَّ اللهَ حقٌّ وما سواه باطلٌ

لمّا ذَكَرَ تعالى أوصافَ الكمالِ الحسنى، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٦﴾ [لقمان: 26]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٧﴾ [لقمان: 27]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ٢٨﴾ [لقمان: 28]، وأشار إلى الإرادة والكمال بقوله: ﴿مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ﴾ [لقمان: 27]، وذَكَرَ الأفعالَ العُلا بإيلاج اللَّيل والنَّهار وتسخير الشمس والقمر؛ بيَّن في هذه الآية العِلَّةَ الكبرى والسَّبب الكليَّ الَّذي انبَنَتْ عليه هذه الأفعال الهائلة، والأوصاف الباهرة، وأنَّها ما كانت إلّا بقوَّةِ الحقِّ، وما قامت إلّا عليه، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾[1]، وهو تعالى يُظهر للخلقِ آياتَه الباهرة ودلائل قدرته الظّاهرة؛ ليستدلُّوا بها على أنَّه الإله الحقُّ الَّذي لا ريب فيه، وأنَّ كلَّ ما سواه باطلٌ زهوقٌ، وأنَّه تعالى هو الكبير المُتعالي الَّذي لا أكبر منه ولا أعلى، وأنَّ الكلَّ خاضعٌ إليه، وهو ذليلٌ حقيرٌ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحَقُّ﴾: (حقّ) أصلٌ يدلُّ على إحكام الشَّيءِ وصِحَّته[3]، يُقال: حُقَّ لَهُ أن يَفْعَلَ كذا، يَحِقُّ حَقًّا، أيْ: ثَبَتَ[4]، وضِدُّه: الباطِلُ، ويأتي الحَقُّ بِمعنى المَوجود، وضِدُّه: المَعدومُ، ويُطلَق على الواجِبِ واللّازِمِ، فيُقال: يَحِقُّ عليك أن تَفْعَلَ كذا، أيْ: يَجِبُ، ويُسْتَعْمَلُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 131، والبقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 15/ 202.
(2) حومد، أيسر التّفاسير، ص: 3380.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حق).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (حق).

بمعنى المُؤَكَّدِ المُتَيَقَّنِ، والحَقيقَةُ: اليَقينُ، وضِدُّها: الشَّكُّ[1]، ومِن مَعانيها أيضًا: الصَّوابُ، والصَّحيحُ، والعَدْلُ، والصِّدْقُ[2]، والحقُّ من أسماء اللّه ﷻ، وقيل: من صِفاته، والمرادُ بالحَقِّ في الآيةِ: الثّابتُ الَّذي لا شكَّ فيهِ ولا كذب[3].

2) ﴿مِن دُونِهِ﴾: (دون) أصلٌ واحِدٌ يدُلُّ على المُداناةِ والمُقارَبة، يُقالُ: هذا دُونَ ذاكَ، أيْ: هو أقرَبُ منه[4]، ولِـ(دُون) تسعةُ معانٍ، فهي بمعنى: (قبْلَ)، وبمعْنى: (وَراء)، وبمعنى الوعيدِ، وفي الأمر، أيْ: خُذْهُ، وفي الإغراء كقولك: (دُونك زيدًا)، أي: الزَمْ زيدًا في حفظه، و(دونَ) بِمَعْنى (تَحت)، وبِمَعْنى (فَوق)، وكذلكَ الدُّون يكون صفةً، ويكون نعتًا على هذا المَعْنى، ولا يُشْتَقُّ مِنْهُ فعل، ويُقالُ: (هذا دون ذَلِك) في التَّقْريب والتَّحقير، ويُقال: (دونُك زَيدٌ) في المَنزلَة والقُرْبِ والبُعْدِ[5]، والمقصود بـ﴿دُونِهِ﴾ في الآية: نقيضُ (فوقَ)، وهو تَقْصيرٌ عَنِ الغاية.

3) ﴿ٱلْبَـٰطِلُ﴾: (بطل) أصلٌ يَدُلُّ على ذَهابِ الشَّيْءِ، وقِلَّةِ مُكْثِهِ ولُبْثِهِ[6]، يُقال: بَطَلَ الشَّيءُ؛ إذا ذَهَبَ ضَياعًا وخُسْرانًا، والباطِلُ: اسْمُ فاعِلٍ مِن بَطَلَ الشَّيءُ يَبْطُلُ بُطْلًا وبُطْلانًا، ومَعْناهُ: نَقيضُ الحَقِّ والصِّحَّة[7]، والباطِلُ أيضًا: التّالِفُ والضّائِعُ مِن الأشْياءِ، وجمعُهُ: بواطِلُ، وقيل: أباطيل[8]، والباطلُ: هو الَّذي لا يكون صحيحًا بأصله، وهو ما لا يُعتدُّ به، ولا يُفيد شيئًا، وهو ما كان فائتَ المعنى من كلِّ وجهٍ مع وجودِ الصّورةِ، إمّا لانعدام الأهليَّة أو المحليَّة، كبيع الحرِّ، وبيع الصَّبيِّ[9]، وبَطِلَ في حَديثه بَطالَةً: هَزَلَ، وكانَ بَطّالًا، ظاهِرُ سياقِه أنَّه مِن حَدِّ (نَصَر)، والصَّوابُ أنَّه مِن حَدِّ (عَلِمَ)، كَما هُوَ في الجَمْهَرة[10]، والمُراد به في الآية: نقيض الحقِّ، وهو ما لا ثبات له عند الفحص عنه[11].

(1) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن سيدَه، المُحكَم: وابن الأثير، النّهاية: (حق)، والمُناويّ، التّوقيف، ص: 143.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (حق).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 187.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دون).
(5) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (عزز).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بطل).
(7) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (بطل).
(8) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيدي، تاج العروس: (بطل).
(9) الجُرجانيّ، التّعريفات: (الباطل).
(10) الزّبيديّ، تاج العروس: (بطل).
(11) الرّاغب، المفردات: (بطل).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أحقيَّةُ اللهِ ﷻ بالعبادة والتَّوقير؛ لأنَّه هو العليُّ الكبير

ذلك الَّذي وصَف اللهُ تعالى مِن الأفعالِ الهائلةِ والأوصافِ الباهِرةِ، كإيلاجِ اللَّيلِ في النَّهارِ وإيلاجِ النَّهارِ في اللَّيلِ وغَيرِ ذلك، إنَّما فَعَله بسَبَبِ أنَّه الإلهُ الحَقُّ القادِرُ على ذلك، الَّذي يَستَحِقُّ العبادةَ وحْدَه دونَ سِواه، وأنَّ الآلهة الَّتي تعبدونها من دونه باطلة الألوهيَّة، وإنَّ الله - وحده - هو العليُّ الشَّأن، الكبير السُّلطان[1]، وأنَّه سبحانه هو الكبيرُ في عظمته وصفاتِه، وكُلُّ شَيءٍ دونَه مُتذَلِّلٌ مُنقادٌ، ومُتصاغِرٌ خاضعٌ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الجملةِ المُصدَّرةِ بالإشارةِ:

كلُّ شيءٍ سوى اللهِ سرابٌ وذلك ما لا يرتاب فيه مُرتابٌ

جملة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ في موضع التَّعليل للمضامين المقرَّرَةِ قبلها، كأنَّه قيل: ذلك الَّذي تقرَّر من تسجيل حقائق البعث والخَلْق، وتسخير الشَّمس والقمر، وتدوير اللَّيل والنَّهار؛ لأنَّ الله هو الحقُّ في قُدرته وقوَّته وقهرِه، فكلُّ شيءٍ عليه هَيِّنٌ، وموقع هذه الجملة موقع النَّتيجة من الدَّليل، فلها حُكمُ بدلِ الاشتمالِ، ولذلك فُصِلَتْ، ولم تُعطف؛ لكمال الاتِّصال، والبَدَليَّة من موجبات الفصلِ، فالجملة من باب إتْباعِ الدَّلائل والنَّتائج بأسبابها، والمعنى: أنَّ إيلاج اللَّيل في النَّهار وعكسه، وتسخير الشَّمس والقمر مُسَبَّبٌ عن انفراد الله تعالى بالإلهيَّة[2].

دلالةُ اسمِ الإشارةِ في السِّياقِ:

الشَّمسُ والقمرُ بعيدان في المواقعِ قريبا الأثر في الواقع

اسمُ الإشارة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ إشارةٌ إلى ما تضمَّنته الآياتُ وأشارت إليه من سعة العلم وكمال القدرة، واختصاص الباري تعالى بتسخير الشَّمس والقمر، والقدرة على

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب، ص: 616.

(2) صافي، الجدول: 11/ 97، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 186.

البعث والخَلْق، أيْ: ذلك المذكور السّابق[1]، ونكتةُ الإشارة: تمييزُ الشَّيء المقصود أكملَ تمييزٍ بالإشارة المحسوسة إليه، وأشار بالبعيد؛ للتَّنبيه على بُعد منزلةِ المُشار إليه، وارتفاع مكانته، ولا يخفى أنَّ الخَلْق والبعث واللَّيل والنَّهار والشَّمس والقمر، هي شؤونٌ بعيدةٌ في المواقع، وإنْ كان أثرها قريبًا في الواقع، إلّا أنَّ تصريفها وتدبيرها وخلْقَها شأنٌ بعيدٌ في منازل القدرةِ والقوَّة؛ ولذلك لم يثبت إلّا لله، ولم يتأتَّ إلّا له سبحانه، فاستحقَّ الإشارةَ بالبعيد؛ تعظيمًا له، وللإلماح إلى بُعدِه عن إمكانِ الخَلْق[2].

معنى الباء في قوله: ﴿بِأَنَّ﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ سببيَّةٌ، أي: ذلك كائنٌ بسبب أنَّه سبحانه وحده الثّابت المُتحقِّق في ذاته، أي: الواجب الوجود، فَلِكونه تعالى هو الحق؛ صارت هذه الأمور، وتنظَّمت هذه النُّظُم؛ لأنَّه ﷻ حقٌّ في ذاته، وحقٌّ في أفعاله، وحقٌّ في أحكامه، وحقٌّ في أسمائه وصفاته[3]، "والمعنى: أنَّ ذلك الصُّنع البديع الَّذي وصفَهُ في الآيات المتقدِّمة للاستدلال به على حقيَّة الله، وبطلانِ ما سواه، وعُلوِّه وكبريائِه، فهو العليُّ في مكانته، ذو الكبرياء في ربوبيَّته، وسلطانه"[4]، ويصحُّ أن تكون الباء للملابسة، أيْ: ذلك المذكور من الإيلاج والتَّسخير ملابِسٌ لِحَقّيَّةِ إلهيَّةِ اللهِ تعالى[5].

كـلُّ مـوجـودٍ بالحقِّ كان وعلى الحقِّ قام

دلالةُ توالي المؤكِّدات في السّياق:

جملة تعليل الإشارة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ احتشدَتْ فيها عدَّة مُؤكِّدات: (أنَّ)، وضمير الفصل، وتعريف طرفي الإسناد، فحرف التَّوكيد؛ للاهتمام بمضمون الجملة، وضمير

بـالـلـه يـكـون الحقُّ وهو الحقُّ وبه يُعرف الحقُّ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 102، وابن عثيمين، تفسير سورة لقمان، ص: 178.
(2) السّامرائي، معاني النّحو: 1/ 88، 89.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 102، وابن عثيمين، تفسير سورة لقمان، ص: 178.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير، ص: 178.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 188.

الفصل؛ لتوكيد الحصر وتمييزِ الخبر وفصله عن الصِّفة، أي: تأكَّدَت وثبتت تلك الموجودات العظيمة بتأكُّد أحقّيَّة الله ﷻ وحده وثبوتِها في الانفراد بالخَلْق والأمر والألوهيَّة، واحتيج لتأكيد تلك الجملة؛ لكونها سببًا لِمُسَبَّبٍ عظيمٍ وعجيبٍ، وهو ما أُشير إليه من شؤون اللَّيل والنَّهار، والشَّمس والقمر، والَّذي أُكِّدَ أمرهما في النَّظم، وفي شهود الواقع والحسِّ، فاقتضى ذلك توكيدَ جملة السَّبب؛ لتحقيق نسبة هذه الحقائق والموجودات إلى سببها الحقيقيِّ المُتفرِّد، وهو الله سبحانه، ولمّا كان المخاطَبُون مختلفين في تقرير تلك النِّسْبَة، فمنهم مؤمنٌ، ومنهم كافرٌ؛ احتيج في حسم هذا الخلاف إلى التَّحقيق والتَّوكيد؛ لتثبيت المؤمن، والاحتجاج على الكافر[1].

معنى (أل) في لفظِ ﴿ٱلْحَقُّ﴾:

(أل) في ﴿ٱلْحَقُّ﴾ للجنس؛ للدَّلالة على الحقيقة والماهية، والمُراد بالحقِّ: الثّابت بذاتِه في ألوهيَّتِه وصفاتِه، وثبوتُ غيره حاصلٌ من الخارج لا بالذّات، فهو الحقُّ ذو الكمال، ومعنى الكمال مستفادٌ من دلالة (أل) على حقيقة الجنس؛ لاستغراقِ الحقيقة جميع خصائص الجنس وصفاته، وهذه درجة الكمال، فمعنى الكمال في الأحقيَّة ثابتٌ بقرائنَ واردة في النَّظم كضمير الفصل؛ لدلالته على الاختصاص والقصر، وكالتَّعريف؛ لدلالته على حقيقة الجنس، ولذلك لم يقل: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ حَقٌّ)[2].

الحقُّ كلُّهُ كائنٌ من اللهِ وإلى اللهِ

موقعُ جملةِ: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾:

جملة: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾؛ للجمع بين الجملتَيْن بإدخالهما في حيِّز التَّعليل بعد اسم الإشارة، كأنَّه قيل: ذلك المُشار إليه من شؤون الخَلْق

الأضـــــدادُ تتكاشفُ وتتمايز وبضدِّها تتميَّز الأشياءُ

(1) البقاعي، نَظْم الدُّرر: 15/ 202، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 187.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 187.

العظيمة؛ لأنَّ اللّه هو الحقُّ، ولأنَّ ما يدعون من دونه الباطل، وهو من باب العطف بين المتقابلَيْن؛ لتقرير القضيَّة أكملَ تقرير ببيان حكم الضِّدَّيْن، وليس المُراد من إدخال المعطوف في حيِّز التَّعليل للإشارة إلى أنَّ لبطلان آلهتهم أثَرًا في إيلاج اللَّيل والنَّهار، وتسخير الشَّمس والقمر، بل المُراد أنَّ ذلك البُطلان يُخلِّص ألوهيَّةَ الحقِّ سبحانه للفردانيَّة والتَّنزُّه عن الشُّركاء، فيستلزم ذلك خلوص آثار أفعاله في كونه له سبحانه دون غيره، وهذا يُؤثِّر في موجودات الكون كلِّها بالاستقامة والتَّوازن، ومن ذلك الإيلاجُ والتَّسخيرُ المذكوران، إذًا: الَّذي له أثرٌ في المُشار إليه، هو ما يلزم عن البطلان من تحقيق ثبوت الألوهيَّة للّه وحده، وليس نفْسَ البطلان[1].

ويحتمل أن يُراد نفسُ البطلانِ

وقد يُراد نفس البطلان، وإدخاله في حيّز التَّعليل من غير تأويل على اعتبار الباء في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ للملابسة، ويكون المعطوفان معطوفَيْن على المجرور بالباء، أيْ: مُلابِسٌ لكون اللّه إلهًا حقًّا، ولكون ما تَدْعون من دونه باطل الإلهيَّةِ، ولكون اللّه هو العلي الكبير، والملابسة المُفادة بالباء هي ملابسة الدَّليل للمدلول[2].

نكتةُ تقريرِ البطلانِ دونَ الاكتفاءِ بالأحقّيَّةِ:

التَّفصيلُ في بابِ الاعتقاد محمودٌ وادِّعـــاء غير الحقِّ مردودٌ

لم يكتفِ السّياق الكريم بتقرير الأحقّيَّة الثّابتة للّه، في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، بل أتبعه بتقرير بطلان أوليائهم ومعبوداتهم، مع أنَّ تقرير الأحقّيَّة على جهة الحصر يستلزم تقرير البطلان تبَعًا؛ وذلك لإبراز كمال الاعتناء بأمر التَّوحيد، وكمال الاعتناء يقتضي الاستقصاء والتَّصريح والتَّفصيل، وللإيذان بأنَّ الدَّلالة على بطلان ما ذُكِر ليست بطريق الاستتباع فقط، بل بطريق الأصالة والاستقلال أيضًا[3]، ومفاد قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّـهَ هُوَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 188.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 188.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 76.

﴿ٱلۡحَقُّ﴾، أنَّه: "إنَّما فعله بأنَّه اللّه حقًّا دون ما يدعوه هؤلاء المشركون به، وأنَّه لا يقدر على فعل ذلك سواه، ولا تصلح الألوهيَّة إلّا لِمَنْ فعل ذلك بقُدرته"[1].

فائدةُ تكرارِ التَّوكيدِ في: ﴿بِأَنَّ﴾ ... ﴿وَأَنَّ﴾:

إيـرادُ التَّراكيب المتـناظـرة على نسقٍ متناسِب مفيد ومناسب

كرَّر النَّظمُ التَّوكيدَ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾؛ ليتناسب مع توكيد مقابِلِه في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، فكما أكَّدَ لإحقاق الحقِّ؛ ناسَبَ أن يُؤكِّد لإبطال الباطِل، والإشارة جليَّةٌ إلى أنَّه إذا كان الحقُّ يتنامى، فيعلو، ويبقى، فإنَّ الباطل يضمحلُّ، فيبيد، ويفنى[2]، وتلك هي عاقبة الحقِّ الأبلج، ونهاية الباطل الأهوج.

دلالةُ الحرفِ ﴿مَا﴾ في السّياقِ:

الإخـبـارُ عـن الـذّاتِ بالمصدرِ للمبالغةِ

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ موصولة بمعنى (الَّذي)، والمعنى: أنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّه من الباطِل البغيض، هو ادِّعاء بالباطل في ذاته وصفاته، فلولا إيجادُ اللّه لِمَن دونه؛ لما وُجِد، ولولا إمدادُه؛ لَما بَقيَ، فإذا كان ما نُسب إلى المعبود من دون اللّه باطلًا، كانت عبادته أبطلَ وأبطلَ[3]، كما أنَّ الإخبار عن أصنامهم بالباطل، يكون من باب الإخبار عن الذّات بالمصدر مبالغةً، كأنَّ الأصنام نفسها صارَتْ بعبادتهم لها عينَ الباطل، فاستجمعَتْ حقيقةَ جنس البطلان فيها، أو هي على تأويل مُضافٍ، أيْ: ذو باطلٍ أو ذات باطلٍ، كأنَّها تميَّزتْ به، وعُرِفَتْ[4].

احتمالُ أن تكون (ما) مصدريَّةً

ويصحُّ أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية، كأنَّه قال: (وأنَّ دعاءكم آلهة من دونه الباطل)، على معنى أنَّ فِعلَهُم الدُّعاءَ للأولياء من دون

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 155.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 155.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 651.
(4) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 355.

اللهِ ﷻ لمّا كان شِركًا وزورًا؛ سُمّيَ باطلًا؛ لكونه هَدَرًا عاطِلًا لا يُنتِجُ قصدَ فاعلِه[1].

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دُونِهِ﴾:

اتِّخاذُ الوسائط لا يعني اقترابها من المقام الإلهيِّ العالي

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَـٰطِلُ﴾ ابتدائيَّةٌ، أيْ: يدعون دعاءً ينشأ في رتبةِ الدُّون والضَّعَة، ولم يقل: (وأنّ ما يَدْعُونَ دُونَه الباطِلُ)؛ لأنَّ معبوداتهم في رتبةٍ قريبة - باعتقادهم - من رتبة الإله، فهي رتبةٌ ناشئةٌ بعده، بحسب إفْكِهم وزورهم، كما قال تعالى حكايةً عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3]، ولذا أدخل ﴿مِن﴾؛ ليدلَّ بها على الوسائط والوسائل الشِّركيَّة، والوسيطُ لا يكون في رتبةٍ سحيقةٍ أو بعيدةِ المأخَذ عن غرضِ مُتَّخِذِه، ولو أسقط الجارَّ؛ لكان شاملًا لكلِّ رتبةٍ دونه، والرُّتَبُ دون اللهِ لا تنحصر، فتدخل في ذلك كلُّ ساقطةٍ ولاقطةٍ، وهذه رتْبَتُها غير مقصودةٍ؛ لكونها ليست مناطًا لدعائهم وتعظيمهم.

توجيه القراءات في ﴿يَدْعُونَ﴾ وبلاغتها:

تلوين الخطاب ليأخذ بالألباب

قَرَأ حفص عن عاصِمٍ، وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف: ﴿يَدْعُونَ﴾ بِالغَيْبِ، وقَرَأ الباقُونَ بِالخِطابِ: ﴿تَدْعُونَ﴾[2]، فحجة من قرأ بالغيبة أنه ردَّه على لفظ الغيبة التي قبله في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ [لقمان: 25]، وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب، وحسن ذلك؛ لأن في الكلام معنى التهدد والوعيد والتوبيخ لهم، فإذا جرى الكلام على لفظ الخطاب كان أبلغ في الوعظ والزجر لهم، وردَّه على لفظ الخطاب التي قبله في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [لقمان: 29][3].

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 355.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 343.
(3) مكّي، الكشف: 2/ 179.

دلالةُ الإضافةِ إلى الضَّميرِ العائدِ في ﴿دُونِهِ﴾:

إخراجُ الشَّيءِ عن رتبته بالزِّيادةِ أو بالنُّقصان بَخْسٌ له

والتَّعبيرُ بالدّونيَّة وإضافتها إلى الضَّمير العائد على لفظ الجلالة - في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِ﴾ - إشارةٌ إلى سفولِ رتبتهم ووضاعة حالِ معبوداتهم من الأصنام والجمادات، أو المُرادُ العمومُ، ويكون إلباسُ أيِّ مخلوقٍ وسْمَ العبوديَّة له من دون الله سبحانه هو بمنزلة تحقيره وإدناءِ رُتبتِه، على عكس ما يتصوَّر العابدُ له من إعظامه، وذلك كما يُساء إلى الضَّعيف بادِّعاء المبالغة في قوَّته، وما ليس يملكه، ولا يستطيعه، فيكون كالتَّندُّر عليه أو الاستخفاف به، والإضافة إلى ضمير الجلالة: لإظهار التَّفاوت الرُّتبيِّ بين الحقِّ والباطل، وما هو عليٌّ بالذّات إزاءَ ما هو دَنيٌّ بالطَّبْع.

التَّشابهُ اللَّفظيُّ بين هذه الآية وآية سورة الحجِّ (62):

تقدُّمُ التَّقريرِ أغنى عن إعادةِ التَّوكيدِ في السّياقِ المجيدِ

في موضع سورة الحجِّ جاءت الآية بضمير الفصل، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحجّ: 62]، وهنا في موضع لقمان خلا من ضمير الفصل المُؤكِّد المُفيد للحصر، فقال: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾، ولم يقل هنا: (هُوَ الباطِلُ)؛ وذلك لتقدُّم التَّقرير والإنكار عليه بطريق الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: 20]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾، وكذلك تقدَّم التَّقرير والحصر بطريق النَّفي والاستثناء في قوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: 28]، وتقدُّمُ التَّقريرِ أغنى عن إعادة التَّوكيد بضمير الفصل، وأمّا في موضع الحجِّ؛ فالتَّقرير واردٌ بعد هذا الموضع في: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الحجّ: 63]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحجّ: 65]، فلمّا تقدَّم التَّقرير في لقمان؛ أغنى عن التَّكرير بإقحام الضَّمير، ولم يتقدَّم ذلك في الحجِّ، فقرَّرَ بالضَّمير، وخلاصة ما سلف "أنَّ الاختلاف

فقط بإضافة كلمة ﴿هُوَ﴾ [الحجّ: 62] في سورة الحجِّ للتَّوكيد؛ لأنَّ السّياقَ في سورة الحجِّ في الهجرة والقتل والموت والتَّكذيب بالآيات، وصراع أهل الباطل، أمّا السّياق في سورة لقمان؛ فهو في اتِّباع ما أنزل الله تعالى، أو اتِّباع الشَّيطان، وهو سياق جدالٍ لإظهار الحقِّ من الباطل، فهو أقلُّ شدَّةً وقوَّةً، ولذلك أكَّد في سورة الحجِّ بإضافة ﴿هُوَ﴾ [الحجّ: 62]، ولم يؤكِّد في سورة لقمان"[1].

بلاغةُ الفذلكةِ في الآيةِ وما سبقها:

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ واقعٌ موقعَ الفَذْلكة، بعد ما تقدَّم من دلالة ما سبق من شؤون اللَّيل والنَّهار، والشَّمس والقمر، على أنَّ الله هو الحقُّ بالألوهيَّة، وأنَّ ما يدعونه باطلٌ، فيثبتُ من ذلك، وينتج عنه أنَّه هو العليُّ الكبير دون أصنامهم[2].

تقريرُ ما سبَقَ بالتَّعقيبِ عليه بِخلاصتِهِ مُفيدٌ في الإبانةِ عن المُرادِ

دلالةُ الواو في جملة الفاصلة:

الواو في جملة الفاصلة: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ عاطفةٌ على جملة: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾، ولم يقلِ السياقُ الحكيم: (ذلك بأنَّ اللَّه هو الحقُّ، وأنَّ الله هو العليُّ الكبيرُ، وأنَّ ما يَدعونَ من دونه الباطِل)؛ رعايةً للفاصلة، وتزيينًا للفاتحةِ والخاتِمَة بتحقيق ما يجب لله سبحانه، ومزيدًا لإبراز المقابلةِ بالتَّجاور، فجعلَ جملة الباطل بعد جملة الحقِّ؛ ليقع أحدُ المتقابلَيْن بإزاء الآخر مجاورًا له.

التَّجاورُ بين المُتقابلات أمكنُ في إبراز التَّقابل وتحقيقه

دلالةُ توالي المؤكِّدات في فاصلة الآية:

أُكِّد قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ بحرف التَّوكيد (أنَّ)، ثمَّ بضمير الفصل ﴿هُوَ﴾؛ لإفادة الاختصاص والقصر والتَّوكيد، ثمَّ بتعريف طرفي الإسناد: ﴿ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾، وتلك المؤكِّدات حاصلةٌ من قبل في جملة التَّأسيس والصَّدر - في قوله

سَوْقُ المؤكِّداتِ ملائمٌ لتقرير الاعتقاد وتحريره

(1) الهلال، تفسير القرآن التّريّ الجامع: 17/ 174.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 187.

تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ - ليتحقَّق في الأذهان ما يجب لله سبحانه؛ ليتأكَّدَ في القلوبِ العِلمُ به واليقينُ بانفراده في الكمال والجلال، وتزاحُم المُؤكِّداتِ في تقرير ذلك عنه؛ ليقرعَ النُّفوس المُرتابَة، ويؤزَّ القلوب المريضة، ويهزَّ الأذهانَ؛ لِتصحو وتنظر، فالمؤكِّدات لائقةٌ بقصدِ تثبيت الاعتقاد، وترسيخ اليقين، وبها ينزجر، وينزعج الأفّاك الأثيم.

نكتةُ تذييلِ الآية بلفظي ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾:

إفادةُ التَّكثيرِ في الوصفِ وديمومته مفصحةٌ عن المُرادِ

ختْمُ الفاصلةِ بالاسمَيْن الجليلَيْن في قوله تعالى: ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾؛ للتَّنبيه على أنَّ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ في قوله: ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ أعلى وأكبر ممّا سواه، فيجبُ أنْ يُتحرّى سبيلُه، ويُستمْسَك به، ويُؤثَر على ما دونه؛ لكونه عليًّا كبيرًا، وفي الاسمَيْن الجليلَيْن: ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ تعريضٌ بباطِلهم في دعاءِ الدُّون سافلي الرُّتبة، وإشراكهم مع الله، ويكأنَّ اصطفاء ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ تتحقَّق به خِسَّةُ معبوداتهم الَّتي عبَّر عنها بقوله: ﴿دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾، فكأنَّه بوصفَي العُلُوِّ والكِبَرِ ينعى عليهم في انحيازهم إلى ما هو في موضع الدّون والبُطلان، ويكأنَّه جعل ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ في مقابلة ﴿ٱلۡبَٰطِلُ﴾، وجعل ﴿مِن دُونِهِ﴾ في مقابلة ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾[1].

إفادةُ الحصرِ والعلوِّ لله تعالى أو أنَّ عُلُوَّ الخَلْقِ من أثر علوِّ الخالق

وأيضًا: لمّا كانوا يُعلُون معبوداتهم عن مراتبها، ويكبِّرونها بغير حقٍّ؛ عبَّر بما يُفيد حصرَ حقيقةِ العُلُوِّ والكِبَر عليه سبحانه وحده، وأيضًا: لمّا ذَكَرَ الشَّمسَ والقمر، وكان يُعتقَدُ فيهما العلوُّ والكِبَرُ، وكان لهما عَبَدَةٌ من النّاس؛ نبَّه بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ على أنَّ عُلوَّ المخلوقات وكِبَرَها، هو أثرٌ من آثار عُلُوِّ الله وكِبَرِه، فعلوُّها من غيرها، وعلوُّ الله سبحانه من ذاته[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 203.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 203.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والأربعون،
سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2025.
مج. 44 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-97-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 44 : المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-97-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4197137 بتاريخ 2025/01/02م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»